اَلْـمَـجْـنُـون

اِنْصَرَفْنا مِنَ المَدْرَسَةِ، وَعُدْنا إلى بُيوتِنا فَرِحِينَ. كُنَّا مَجْموعَةً مِنَ الْأَطْفالِ، نَتَحادَثُ وَنَضْحَكُ ونَقْفِزُ. وَفي الطَّرِيقِ، شَاهَدْنا مَجْنوناً، قَصِيرَ الْقامَةِ، أَسْمَرَ الْبَشَرَةِ، أَشْعَثَ الشَّعْرِ، يَرْتَدِي ثَوْباً بالِياً، يَكْشِفُ عَنْ صَدْرِه .

تَحَلَّقْنا حَوْلَه، نَنْظُرُ إلَيْه بِفُضُولٍ، ونَسْخَرُ مِنْ مَظْهَرِهِ بِعِباراتٍ جَارِحَةٍ :

هَذَا يَقولُ: اُنْظُـرُوا إلَى لُعَابِهِ كَيْفَ يَسِيلُ؟ .!

وَذَاكَ يَقولُ: مَا أَبْشَعَ مَنْظَرَه !

وَآخَرُ يَقولُ: إنَّه يَسِيرُ حَافِياً !

وَآخَرُ يَقولُ: ما أَكْرَهَ رائِحَتَه !

وَكُنَّا نَظُنُّ، لَا، لاَ كُنَّا مُتَأَكِّدِينَ تَمامًا مِنْ أَنَّه لَمْ يَغْتَسِلْ في حَياتِه !

وَبَعْدَ كُلِّ هَذِهِ المُلاَحَظاتِ كُنَّا نَنْفَجِرُ ضَاحِكِينَ .

وَظَلَّ المَجْنونُ صَامِتاً، يَرْمُقُنا مَدْهوشاً. أَقْبَلْنا عَلَيْهِ، نُغِيظُهُ وَنُؤْذِيهِ. نَأْتِيهِ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ، ونَأْتِيهِ مِنْ خَلْفِهِ. هَذَا يَشُدُّ شَعْرَهُ، وذاكَ يَنْـثُـرُ ثَوْبَـهُ، وَآخَرُ يَدْفَعُ ظَهْرَهُ، وَهُوَ يَلْتَفِتُ ذَاتَ الْيَمِينِ، وَذَاتَ الشِّمالِ، وَلاَ يَدْرِي مَاذَا يَفْعَلُ!؛ لَمْ نَكْتَفِ بِذَلِكَ، بَلْ أَخَذْنا نَقْذِفُهُ بِالْحَصَى، فَهَرْوَلَ وَرَاءَنا، يَصْرَخُ مُتَأَلِّماً .

هَرَبْنا مِنْ وَجْهِهِ، نَـرْكُضُ أَمامَهُ، وَنَلْتَفِتُ إلَيْهِ. وحِينَما وَقَـفَ، عَاوَدْناهُ ثانِيةً، فَرَمَاهُ طِفْلٌ بِحَجَرٍ كَبِيرٍ، شَجَّ رَأْسَهُ، وَسَالَ دَمُهُ، فَقَعَدَ خَائِفاً، يَمْسَحُ الجُرْحَ بِكَفِّهِ، ويَتَأَمَّلُ يَدَهُ المُلَطَّخَةَ بِالدِّماءِ، ثُمَّ يَرْفَعُ بَصَرَهُ إلى السَّمَاءِ .

كَفَفْنا عَنْ إيذَائِه، ووَقَفْنا نَتَأَمَّلُهُ صَامِتِينَ .

جَاءَتْ عَجُوزٌ، فَقِيرَةٌ طَـيِّـبَةٌ، وَخَاطَبَتْنا مُعاتِـبَـةً: لِمَاذَا تَضْرِبونَهُ يَا أَبْنائِي؟!. إِنَّهُ مَجْنُونٌ! ولَكِنَّهُ إِنْسَانٌ مِثْلُكُمْ، يَأْلَمُ كَمَا تَأْلَمُونَ .

أَجِبْناهَا: ألا تَرَيْنَ شَكْلَهُ الْقَبِيحَ؟!. فَقالَتْ المَرْأَةُ مُتَعَجِّـبَـةً :

-يا أَبْنائِي!.. الشَّكْلُ الْقَبِيحُ لاَ يَعِيبُ صَاحِبَه، وإِنَّما فِعْلُهُ القَبِيحُ .

نَكَسْنا رُؤُوسَنا خَجَلاً، ولَمْ نَنْبِسْ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ. وَانْحَنَتِ العَجُوزُ عَلَى المَجْنُونِ، تَمْسَحُ لَهُ وَجْهَهُ وجُرْحَهُ، ثُمَّ قَبَّلَتْهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَسَحَبَتْهُ مِنْ يَدِهِ، فَمَشَى مَعَهَا طَائِعاً مِثْلَ حَمَلٍ وَدِيعٍ .

تَرَكْتُ رِفَاقِي واجِمِينَ، وسِرْتُ وَراءَها، لِأَكْشِفَ سِرَّهَا. اِسْتَدارَتْ نَحْوِي، فرَأَيْتُ في عَيْنَيْهَا الدُّمُوعَ.

قُلْتُ مُسْتَغْرِباً: أَتَبْكِينَ عَلى هَذَا المَجْنُونِ؟ .!

قَالَتْ بِحَنَانٍ بَالِغٍ: إِنَّهُ اِبْني! قُلْتُ مُتَعَجِّبًا: لاَ أَكادُ أُصَدِّقُ !

قَالَتْ: لِمَاذَا؟

اِزْدادَ تَعَجُّبي وَلَكِن قُلْتُ لَها: إنّه... مَـجْنُونٌ !

قَالَتِ الْعَجُوزُ: وَهَلْ يُولَدُ المَجْنُونُ بِلاَ أُمٍّ؟ .!

سَأَلْتُ مُتَعَجِّباً وَخَائِفًا مِنْهَا: لِمَاذَا لَمْ تُعاقِبِينَا عَلَى مَا فَعَلْنا؟ .!

فَأَجابَتْنِي مُبْتَسِمَةً وهِيَ ناظِرَةٌ إِلَى عَيْنَيَّ: ولِمَ العِقابُ يا بُنَيَّ؟!. مازِلْتُمْ صِغَاراً !

وَأَنَا قُلْتُ نادِماً حَزِيناً: إِنّني أَعْتَذِرُ إِليكِ، فهَلْ تَقْبَلِينَ اِعْتِذَارِي؟

مَدَّتِ الْعَجوزُ يَدَها، ومَسَحَتْ رَأسِي بِرَاحَتِها الحَانِيَةِ، وقالتْ :

-لاَ تَحْزَنْ يا صَغِيرِي!.. إِنَّنِي أُعْذِرُكَ وأُسَامِحُكَ، وَلَكِن أَرْجُو أَلَّا تَفْعَلُوا مَرَّةً أُخْرَى .

ومَضَتِ الأُمُّ الرَّؤُومُ، تَسْحَبُ ابْنَها الحَبِيبَ إِلى قَلْبِها، وظَلَلْتُ واقِفاً في مَكاني، أَرْنُو إِلَيْهِمَا راحِماً، وَأَقُولُ في نَفْسِي : مَا أَكْـثَـرَ الدُّرُوسَ الَّتِي نَأْخُذُهَا خَارِجَ جُدْرَانِ المَدْرَسَةِ!...